من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامـــة ! ...

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ ضحى إبراهيم الصالح

— ٢ —

وحين ندرس نفسية هذا الظريف من خلال قصصه ونوادره — وهي غاية ما وصل إلى أيدينا من حياته — سنضطر إلى ذكر بعض مداعباته لنستدل بها على شيء مما نراه . ومن تلك المداعبات التي نشير بها إلى ما كان من انسجام بين أبي دلامة وزوجته اشتراكهما في خداع المهدي وزوجته الخيزران : فقد دخل أبو دلامة يوماً على المهدي وهو يبكي . فقال له مالك ؟ قال : ماتت أم دلامة ، وأنشده فيها :

وكنا كزوج من قطاً في مفازة ... لدى خفض عيش ناعم مؤنق رغد

فأفردني ريب الزمان بصرفه ... ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد !

فأمر له بثياب وطيب ودنانير ، وخرج . فدخلت أم دلامة على الخيزران فأعلمتها أن أبا دلامة قد مات فأعطتها مثل ذلك ، فلما التقى المهدي والخيزران عرفا حيلتهما فجعلا يضحكان لذلك ويعجبان منه[1] .

ومثل هذا الاشتراك في الخداع الذي كان يمضي طليقاً حتى يصل إلى الخليفة وزوجته — يدل على تفاهم عميق بين الزوجين ، وعلى وحدة في نظرتهما إلى الحياة ، فكأنهما يشرفان على العالم من منظار واحد فيه مرح النكتة ، ولطف الدعابة .

وهنا نرغب في معرفة اسم هذه المرأة الخبيثة — زوجة شاعرنا الظريف — فنقض به علينا المصادر كأنها لا ترى في ذكره فائدة .

ونعلل هذا — كما يبدو لنا — بأن أمثال هذا الظريف تروى في كتب الأدب حياتهم للاشارة إلى جانب يستحق الدراسة فيهم وهو ظرفهم ومرحهم وسلاطة ألسنتهم ، وما بعد هذا الجانب فأمور تتعلق بأحدهم من قريب أو بعيد كما تتعلق بآحاد الناس فلا تستأهل الدراسة ، ولا تستحق التسجيل .

لذلك سنمر — في أثناء عرضنا لحياة أبي دلامة — مروراً رفيقاً بما يتصل بأسرته ، فنعلم أنه كان له أولاد غير دلامة وأن فيهم بنتاً قبيحة ولكننا لا نعرف أسماءهم ، ولا نحاول أن نعرف ما إذا كان له أخوة ، فقد سكتت عن هذا كله النصوص التي بين أيدينا . ولكن الذي يجدر بنا أن نعرفه منزلة هذا الظريف لدى أبي العباس السفاح ، وأبي جعفر المنصور والمهدي أيام انقطع إلى مجالسهم ومنادمتهم .

ويبدو أنه كان رفيع المكانة لدى السفاح ، وأنه — للطف محله منه — كان ينال ما يشاء من المطالب ولا سيما إذا أحسن في أسلوب الطلب : من ذلك أنه وقف يوماً بين يدي السفاح — فقال له : سلني حاجتك . قال أبو دلامة : كلب أتصيد به . قال: أعطوه إياه. قال: ودابة أتصيد عليها. قال : أعطوه دابة. قال : وغلام يصيد بالكلب ويقوده . قال : أعطوه غلاماً . قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : أعطوه جارية . قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها . قال : أعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أعطيتك مائة جريب[1] عامرة ومائة جريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : ما لا نبات فيه؟ فقال : قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال : فائذن لي أن أقبل يدك . قال : أما هذه فدعها . قال : والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها[2] .

فانظر — في هذه القصة — إلى مكانة أبي دلامة لدى السفاح ، تلك المكانة التي تهيء له أن يجاب له كل طلب بعد أن يصير عليه الخليفة فلا يسكته ، بل يتقبل جرأته ويثيبه عليها فيجرب ثوابه ؛ ثم انظر — كما قال الجاحظ — « إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها : ابتدأ بكلب فسهل القصة به ، وجعل يأتي بما يليه على ترتيب

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٥٥ .

(١) الجريب من الأرض : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع وقيل عشرة آلاف ذراع .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٦

وفكاهة ، حتى نال مالو سأله بديهة لا وصل إليه ! »

وكما أحسن السفاح إلى أبي دلامة تجد الظريف مقيما على الوفاء له بمدحه في كل مناسبة وبذكره بكل خير ، بل لقد أقام يذكر جميله حتى بعد موته ، فرثاه بأبيات كثيرة . ومما قاله في قصيدته الهمزية :

وكنا بالخليفة قد عقدنا لواء الأمر فانتقض اللواء
فنحن رعية هلكت ضياعاً نسوق بنا إلى الفتن الرعاء

ولم يكتف بهذا ، بل إنه دخل على المنصور والناس عنده يعزونه في السفاح فأنشأ يقول :

أمسيت بالأنبار يا ابن محمد لم تستطع عن مقرها تحويلا
ويل عليك وويل أهلي كلهم ويلا وعولا في الحياة طويلا
فلتبكين لك النساء بعبرة وليبكين لك الرجال عويلا
مات الندى[1] إذ مت يا ابن محمد فجعلته لك في الثراء[2] عديلا
إني سألت الناس بعدك كلهم
فوجدت أسمح من سألت بخيلا[3]
أشقوق أخرت بعدك للتي تدع العزيز من الرجال ذليلا
فلأحلفن يمين حق برة بالله ما أعطيت بعدك سولا[4]

فلما سمع الناس هذه الأبيات بكوا . فغضب المنصور غضباً شديداً وقال : لئن سمعتك تنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك . فقال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرماً وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف إليه ، فقل كما قال يوسف لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) فسرى عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار إلى جماعة ممن حضر ، فوثب سليمان بن مجالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مغيظ : يا سليمان ادفعها إليه[1] .

ولو لم يكن السفاح يكثر العطاء والصلة لأبي دلامة مقربا إياه على سواه لما مدحه الشاعر هذا المدح العظيم ، ولما رثاه أمام المنصور ذاك الرثاء البليغ ، ولما بقي مقيما على الوفاء له . ويظهر أن لحذق أبي دلامة في المسألة ومهارته في إظهار حاجته ولباقته في طلب ما يريد — أكبر الأثر في رغبة الخلفاء العباسيين بوصله ولا سيما المنصور الذي اشتهر ببخله ، ومع ذلك « لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إلى أبي دلامة منه خاصة » كما قال صاحب الأغاني[2] .

ومن سبيلك أن تعلم أن أبا دلامة دخل على المنصور يوماً فأنشده :

أما ورب العاديات ضبحا[3] حقاً ورب الوريات قدحا
إن المنيرات على صبحا والنائكات[4] من فؤادي ترحا
عشر ليال بينهن ضبحا[5] يحملن مالي كل عام صبحا ...

فقال له أبو جعفر : وكم تذبح يا أبا دلامة ؟ قال : أربعاً وعشرين شاة . فقرض له على كل هاشمي أربعة وعشرين ديناراً ، فكان يأخذها منهم ، فأتى العباس بن محمد[6] في عشر الأضحى يتنجزها . فقال : يا أبا دلامة ، أليس قد مات أبوك ؟ قال بلى . قال : انقصوه دينارين . قال : أصلح الله الأمير لا تفعل ، فإنه ترك علي ولدين . فأبى إلا ينقصه . فخرج وهو يقول :

أعطاك ما كنت ترجوه وتأمله فاغسل يديك من العباس بالياس
واغسل يديك بأشنان[7] فأنقهما
مما تؤمل من معروف عباس
جزاك ربك يا عباس عن فرج
جنات عدن وعن جرذى[8] آس

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحك ، وافتاظ على العباس ، وأمره

(١) وفي رواية : هلك الندى لما نبت .
(٢) الثراء : لغة في الثرى (٣) وروى هذا البيت برواية أخرى :
ولقد سألت الناس بعدك كلهم فوجدت أكرم من سألت بخيلا
(٤) السول (بهمزة وبغيرها) ما سأله . ويروى أول البيت أيضاً : ولقد جلفت ...

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٤٠
(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٩
(٣) الضبح : صوت أنفاس الخيل إذا عدت ليس بصهيل ولا حمحمة
(٤) نكلا الفرح : قهره قبل أن يبرأ فينسى
(٥) هكذا وجدنا في الرواية ، وفي أخرى (صبحا) والمعنى غير واضح فيهما (٦) كان هذا الرجل مشهوراً بالبخل
(٧) الأشنان (بالضم) حجر تغسل به الأيدي
(٨) الجرذ : الخرسة